صورة من عهد النهضة الأوربية

البابا والمثال

عند ما قابل البابا يوليوس الثانى المثّال لأول مرة ، كان كل منهما قد بلغ قمة الشهرة فى محيطه . فلم يكن البابا شبحاً من تلك الأشباح العابرة التى جلست على كرسى القديس بطرس وتركت أسطراً على صفحات التاريخ ضئيلة ، بل برزت مواهبه منذ نصبه عمه البابا سستو الرابع كردينالا ، فكان من أقوى ذوى القبعات الحمراء شخصية ، ومن أمضاهم عزيمة ، وقد عرف بالسخاء فى تشجيع العلوم والفنون ، كما عرف بشدة العارضة واللَّدَد فى الخصومة إذا غضب . فما إن مضى به الزمن وامتدت به الحياة حتى صار فريق من الناس يعتقدون أنه أولى من غيره بالجلوس على كرسى البابوية وأجدر رجال الدين بأن يملأ هذا العرش الكبير .

لكن إسكندر السادس ، أو إسكندر بورچيا إذا أحببت ، فاز بالانتخاب دونه بعد وفاة نيقولا الخامس . ولم يقنع اسكندر السادس ، أو لم يقنع أبناؤه ، بأن يكون جالساً على العرش الرومانى للمسيحية والمدنى لروما وتوابعها من بلاد وأراض واسعة فى إيطاليا ، بل أراد أن يؤسس ملكا لبنيه ، وطمع ابنه شيزارى بورچيا فى أن يكون ملكا على إيطاليا بأسرها ، جاعلاً نواة هذا المطمح العظيم أن ينتزع أرض الكنيسة من الكنيسة .

وكان من الطبيعى أن يكون الكردينال دى روڤيرى ، الذى نذكره تحت اسم يوليوس الثانى ، أشد خصوم البابا وأبنائه فى مشروعاتهم ، وأكثر الناس تنديداً بمطامعهم ، وكان آل بورچيا لايتورعون عن محاربة خصومهم بجميع الوسائل . حتى الوسائل التى تعد جرماً من فرد عادىّ بَلْهَ رجل من رجال الدين ، بل بَلْهَ بابا أو كرادلة ، فكانوا مثلا — هكذا أثبت ذلك التاريخ ، أو لم يثبت وإنما هكذا قال معاصروهم — يلجأون أحياناً

إلى طريقة بسيطة فى التخلص من خصومهم : فكأس من الشراب مشوب بمادة يعرف آل بورچيا سرها كفيلة بذلك .

لذلك رأى الكردينال دى روفيرى مع خصومته وشدة عارضته — كما رأى غيره من كرادلة — أن حياته ليست بمأمن فى روما ، واضطر إلى الفرار والالتجاء إلى ملك فرنسا ، يعيش فى أرضها ويقيم فى الوقت نفسه حرباً عواناً على بابا بورچيا .

فإذا مات البابا إسكندر السادس فى ظروف غامضة ، إذ كان الناس لا ينتظرون وفاته ، توقع الناس أن يليه الكردينال دى روفيرى غريمه . ولكن ذلك لم يحدث ؛ لأن الكرادلة كعادتهم يُؤْثرون البابا الضعيف على القوى ، وانتخب الكردينال بيكولمينى باسم پايوس الثالث ، ولكنه لم يعمر غير بضعة أشهر ، وانعقد مجلس الكرادلة ، فلم يكن بد من انتخاب يوليوس الثانى .

ولسنا نريد أن نسرد تاريخ هذا البابا العجيب ، فقد برزت قوته بمجرد توليه كرسى البابابوية ، فهو لم يقنع بأن استخلص أراضى الكنيسة من شيزارى ، واضطره إلى التشرد والنفى والموت فى بلاد بعيدة ، بل أخذ يستخلص غيرها من الأراضى التابعة للبابا ، فشن الحروب وسير الجيوش على مدينة پيروچيا ، ثم على مدينة بولونيا ، وكان يسير مع جنوده فى ثياب أقرب إلى ثياب القواد منها إلى ثياب البابا ، وهو يستحث جنوده على القتال ويدخل فى طليعتهم إلى المدن إذ تسلم إليه .

ولقد نعجب إذ نرى أن المؤرخين والكتاب من الفرنسيين إلى اليوم يحبون أن ينحوا باللائمة على البابا يوليوس الثانى ، ويزعمون أنه نبذ ما يليق بالبابا من وقار ، وأنه كان يسلك مسلك القواد المرتزقة — الكوندتييرى — الذين كانوا يؤجرون أنفسهم وجنودهم لأمراء الدول الإيطالية ، وللبراطرة والملوك الذين كانوا يطمحون دائماً إلى الاستيلاء على المدن والبلاد الإيطالية . ولكن لعل الكتّاب الفرنسيين متأثرون حتى الآن بموقف البابا نحو بلادهم . فلقد عرفنا أنه لجأ إلى فرنسا وهو كردينال . ويجب أن تعرف أن الكرادلة الفرنسيين أيدوه ، وعملوا على انتخابه لكرسى البابابوية ، وكانوا ينتظرون منه أن يؤيد سياسة فرنسا ومطامعها ، ولكنه لم يفعل ، بل سلك سياسة مستقلة غرضها

الأول حماية ما للكنيسة من نفوذ سياسى . وكان طبيعياً أن يصطدم فى مبدأ حكمه بملك فرنسا ؛ فقد تحدى الملك فى أغراضه ، ولم يتردد فى قتال الفرنسيين ، وعرف كيف ينهزم أمامهم ، ثم كيف يهزمهم .

أما المؤرخون الألمان فإنهم جميعاً ، أو أكثرهم ، يعتبرونه أعظم رجل جلس على كرسى البابا فى عصر النهضة . ولعل ما اتصف به من روح الحرب والقتال ، مما يخرج به عن موقف رجل الدين ، قد صادف هوًى فى نفوسهم وفى طبيعتهم المناضلة . ولكن ما لنا نحن الشرقيين لا ننظر إلى هذا البابا وزملائه من الذين حكموا روما فى عصر النهضة نظرتنا إلى النظام القائم عندئذ فى الشرق ! ألم يكن الخليفة من بنى العباس رجلَ دين ودنيا معاً ؟

على أن ما يهمنا فى السنوات الثمانى من حكم البابا يوليوس الثانى ، ليس حروبَه ، فتلك قصة رائعة لذيذة ، وليس هذا موضعها ، ولكن مايهمنا هو ذلك النشاط الفنى العظيم الذى ظهر فى عصره نتيجة لتشجيعه . فالبابا يوليوس الثانى حوّل روما من مدينة خربة من مدن القرون الوسطى ، إلى مدينة من مدن الفن الخالدة ؛ فقد جذب إليها أكبر رجال الفن فى عصره ، وكان من حسن طالعه أن عصره يعج بالرجال النابغين فى مختلف الفنون ، فجذب إلى روما أكبر المهندسين ، وأكبر المصورين ، وأكبر المثّالين .

ولقد خدمه حشد منهم ، نذكر من بينهم برامنتى ذلك الذى أشرف على العمل فى إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، فصارت تحفة نادرة من تحف الفن كما نراها اليوم ، وهو الذى عرف ما فى الصبىّ رفاييل من مقدرة على التصوير ، فعهد إليه أن يضع تلك الرسوم الخالدة التى نراها إلى اليوم فى شرفة من شرفات قصر الفاتيكان ، ولكن الصفحة البارزة فى حياته الفنية ، هى قصته مع ميكل أنجلو ذلك المثال الخالد .

لقد نشأ المثال ميكل أنجلو بوناروتى فى مدينة فلورنسا ، من أسرة عريقة ، وفى عصر لورنزو دى مديتشى الفخم ، وظهرت مواهبه الفنية وهو لا يزال طفلا ، وبدت هذه المواهب جلية لوالده ، فلم ير بدًّا من الاستجابة لميول الصبى ، فعهد فى تعليمه الرسم إلى جريلاندايو من أكبر المصورين فى فلورنسا ، فأظهر فى وقت قصير مقدرة فى فن التصوير وأثار اعجاب أستاذه ، حتى قال ذات مرة إنه ليعرف أكثر مما أعرفه أنا .

وكان لورنزو دى مديتشى محبًا لفن التماثيل ، فجمع مجموعة عظيمة من التماثيل القديمة ، وأنشأ فى حديقته بساحة سان ماركو مدرسة يتعلم فيها الشبان هذا الفن ، واتخذ برتولدو المثال لها رئيساً . فطلب من جريلاندايو أن يختار له من بين تلاميذه من يميل إلى فن التماثيل أكثر من التصوير ، فاختار له ميكل انجلو الذى أخذ بعد بضعة أيام فى احتذاء بعض التماثيل القديمة مع أنه لم يلمس الرخام من قبل . وأعجب لورنزو برأس رجل شيخ نقله المثال الشاب إعجاباً شديداً . وكان الشاب فى دقته قد فتح فم التمثال ووضع داخل الفم لسانا والأسنان كاملة . فقال له لورنزو ضاحكا : ألا تعلم يابنى أن الشيوخ يفقدون دائما بعض أسنانهم ! وكان الشاب يحترم الأمير احتراماً كبيراً . ولم يأخذ الملاحظة على أنها دعابة ، فكسر بعض الأسنان وعدّل من اللثة . فلما شاهد الأمير ذلك زاد ضحكه وزاد إعجاباً بمهارته ، وأرسل فى طلب والده وأستأذنه فى أن يقيم الصبى فى القصر ، ويطعم من طعامه ، وكان عندئذ فى الخامسة عشرة من عمره ، وقد ظل مقيما فى القصر إلى وفاة لورنزو .

لم يكن الشاب ليقنع بما ظهر من مهارته ، فأخذ يحاول أن يتعرف الجسم الانسانى ، وكان فى ذلك الوقت يصنع صليباً من الخشب لكنيسة روح القدس بفلورنسا ، فأنزله رئيس الكنيسة فى غرفة مناسبة ، وسمح له فى تشريح بعض الجثث ليقف على تكوينها ، وبذلك زاد خبرة ومعرفة بتركيب الجسم الإنسانى وما فيه من عضلات .

ثم سافر قبل طرد أسرة مديتشى من فلورنسا بقليل إلى البندقية ، فلم يجد عملا ، فرحل عنها إلى مدينة بولونيا حيث أقام أكثر من سنة بين أسرة كبيرة عرفت قدره ، ثم عاد إلى وطنه . وحدث فى ذلك الوقت أن صنع تمثالا للقديس يوحنا لأحد أفراد أسرة مديتشى ، ثم صنع تمثالا من الرخام لآله الحب وهو نائم . فلما شاهده أحد العظماء قال له : إنك لو أرسلته إلى روما على أن يدفن فى الأرض ثم يخرج منها ، لظنوه تمثالا قديماً ، ولدفعوا لك أضعاف ما تجنيه من ثمنه فى هذه المدينة . وقد فعل ، وجاز الأمر على الكردينال سان جورجيو ، فاشتراه بمائتى دينار ذهباً . وشاع الأمر بعد ذلك فى مدينة فلورنسا ، واضطر إلى رد النقود ، وإن كان المشترى لم يسلم من النقد لأنه لا يهتم للفن الحديث مهما كان إتقانه .

وكان فى فلورنسا قطعة من رخام أفسد مثال من مقاييسها فلم تعد صالحة لشئ ، وظلت ملقاة لا نفع منها ، إلى أن استأذن ميكل أنجلو فى أن تعطى له ، فوضعتها إدارة المدينة تحت تصرفه ، فاذا به يصنع من تلك القطعة التى كانت لا تصلح لشئ ، تمثالا خالداً يمثل صورة البطل داڤيد ، فكان هذا التمثال وسيظل دائماً فخراً للمثال ولموطنه .

إذن كان كل من البابا والمثّال قد بلغ قمة الشهرة فى محيطه ، عند ما أرسل البابا يوليوس الثانى فى طلبه ، وكان المثال مع كل ما بلغه من شهرة حول الثلاثين من عمره ، ولا يزال فى شرخ شبابه ، وهو متوسط القامة نحيل متوتر الأعصاب ، أكتافه عريضة على أنها متناسبة مع قامته ، وكان وجهه كبيراً ، وتبدو فى عينيه الصغيرتين مظاهر الطيبة ، وهو غير قبيح الصورة مع أن أنفه كان أفطس إذ كسر عقب حادث وقع له فى صباه . وكان ميكل أنجلو سريع الغضب سريع الرضا . أما البابا فكان يبدو ، كما نراه فى صورته التى رسمها له رفاييل ، طويل القامة نحيلا بعينين متوقدتين نافذتين ، ويبدو كما نراه فى هذه الصورة أيضاً ، متوثباً سريع الغضب أيضاً وسريع الرضا . وكان البابا قد عرفه لا بشهرته فقط ، بل لأنه شاهد شيئاً من أعماله الخالدة . فقد رأى ذلك التمثال الرائع الذى يمثل حنو الأم المقدسة نحو ولدها الجريح ، والذى نشاهده ونعجب به إلى اليوم فى الركن الأيمن من كنيسة القديس بطرس . فلما جاءته دعوة للبابا أسرع إلى روما ووصل إليها فى شهر مارس سنة ١٥٠٥ ، فوجد فى البابا أكبر عاهل يقدر رجال الفن ويحفظ لهم كرامتهم . وكان البابا يتابع أعمال الفنان فى اهتمام كبير ، ويلح عليه فى إتمام مابدأ به من عمل الحاح الطفل فيما يرغب فيه . ولا ينتهى الفنان من عمل حتى يكل إليه البابا عملاً آخر . وكان البابا والفنان متفاهمين كل التفاهم ، ولكن كل منهما كان حاد الطبع عنيفا ؛ فكانا على ما لديهما من حب واحترام متبادل ، تقع بينهما مصادمات ومشادات لا يلبث أثرها أن يزول ، ويتغلب عليها ما طبعا عليه من طيبة قلب وحب للفن وتقدير له .

عهد إليه البابا أول ما عهد فى إنشاء بناء فخم يكون من الرخام يوضع فوق قبره ، وقد أراد البابا أن يتم ذلك فى حياته ، فأعد ميكل أنجلو عدة رسوم واختار البابا إحداها ، ووقع المثال عقداً فى أن يتم ذلك النصب فى خمس

سنوات ، على أن ينقد ثمنا قدره عشرة آلاف دينار ويمنح فى هذه السنوات الخمس راتبا شهريا قدره مائة دينار . وتحمس ميكل أنجلو لهذا العمل ، وسافر إلى تلال مدينة كارارا المشهورة بصفاء رخامها ليختار الأحجار بنفسه وظل يراقب العمال حتى أتموا استخراج قطع الرخام التى نقلت إلى روما بالبحر ، وكانت تزن نحو عشرة ومائة طن ، واستغرق هذا العمل ثمانية أشهر .

عاد إلى روما بأحجاره التى وصلت بعد صعوبات كبيرة ، فأقام مصنعه فى ساحة سان بيترو ، واستعد للعمل فى هذا البنـاء التذكارى الذى لو أنه تم كما بين فى الرسم لكان أعجوبة الزمن .

ولكن ميكل أنجلو كان يدبّر لعمله والبابا يدبّر لعمل آخر : ذلك أن أفكار البابا أخذت تتجه وجهة جديدة ؛ فقد رأى قبل أن ينشىء هذا النصب الذى ليس له مثيل والذى كان يقدر وضعه فى كنيسة القديس بطرس ، أن يجدد الكنيسة نفسها ويعيد بناءها ، بحيث تصبح جديرة بمقر المسيحية . وموئل رئيسها . وإذن فقد رأى أن يوقف بناء النصب مؤقتا إلى أن يشرع فى تجديد الكنيسة ، كى يكون هنالك تناسق بين نخامة البناء ونخامة النصب التذكارى . وفى الوقت نفسه كان البابا يدبر عملا فنيًّا آخر لميكل أنجلو ، وهو أن يغطى حوائط المصلى المعروفة باسم البابا سستو بالرسوم ، وكان ميكل أنجلو قد ترك فن التصوير منذ صباه واتجه بميله نحو النحت ، فتلكأ فى إجابة البابا إلى رغبته ، واعتذر بانه لايتقن التصوير ، وأنه وقد بدأ فى العمل الذى تعاقدا عليه ، واستأجر أعوانا من رجال الفن من فلورنسا بعد إذن البابا ، ونقدهم نقوداً من عنده ، وأنفق فى سعة على العمل غير منتظر الأقساط التى تدفع إليه ، لا يستطيع الآن أن يترك هذا العمل . وطلب مقابلة البابا شخصيًّا ، ليشرح له الظروف ويقنعه بالسير فيما اتفق عليه ، لاسيما أنه نمى إليه أن البابا صرح لبعض رجاله بأنه لن ينفق فلسا على الأحجار . على أن البابا لم يقابله بل أجل مقابلته أسبوعا ، فلما ذهب فى الموعد المضروب قيل له إن البابا مشغول عن مقابلته فى ذلك اليوم ، فاستشاط غضبا وصاح قائلا : « أخبروا البابا بأنه إذا أرادنى فليجدنى إذا استطاع ذلك » . وخرج مسرعا من القصر ، فطلب من أتباعه أن يبيعوا متاعه وامتطى جوادا ورحل عن روما وهو لا ينتوى الرجوع إليها .

أخبر البابا يوليوس بفرار ميكل أنجلو وكان ذلك فى اليوم السابق للاحتفال

بوضع الحجر الأساسى فى بناء كنيسة القديس بطرس ، فأمر بأن يجدّ بعض جنوده فى أثر المثال الهارب وأن يأتوا به ولو قسراً إذا اضطروا إلى ذلك . ولكن المثّال كان يسرع العدو ، ولم يهدأ باله حتى وصل إلى حدود دولة فلورنسا . وهنالك أدركه الرسل وسلموه رسالة البابا التى يأمره فيها بالعودة وإلا غضب عليه . ولكن الفنان الغضوب لم يكن ليذعن فى هذا الظرف ، بل كتب إلى البابا رسالة يقول فيها : « إننى لم أكن أستحق بعد ما قدمته لقداستك من خدمات أن أطرد من القصر كما يفعل بخادم حقير ، وما دمت قد عدلت عن إقامة النصب التذكارى فقد تحررتُ من العقد ، ولا أريد أن أرتبط بعمل آخر . »

رأى أصدقاء من مواطنيه فى خدمة البابا أن يتوسطوا فى الأمر ، وكاتبوا ميكل أنجلو طويلا فى ذلك ، فكان يتمنع . وقد ذكر له أحد هؤلاء الفنانين فى رسالة أنه كان جالساً فى حضرة البابا مع الفنان برامنتى ، الذى وضع رسوما لتجديد كنيسة القديس بطرس ، وكان برامنتى لا يحب ميكل أنجلو ويغار منه ، فقال له البابا وهو يشاهد الرسوم سأرسل غداً صديقنا هذا سان جالو ليأتى بميكل أنجلو كى يبدى لنا رأيه ، فتضايق برامنتى وقال : « إن ميكل أنجلو لن يأتى فأنا على علم بطباعه » ، ثم أبدى أن ميكل أنجلو لا يحسن التصوير ، ولذلك فرّ من عمل الرسوم .

وكانت هذه الأنباء تحز فى قلب ميكل أنجلو ولكنه ظل على موقفه .

وحاول البابا محاولة أخرى ، فأرسل رسالة إلى مجلس الحكم فى فلورنسا يقول فيها : « أبنائى الأعزاء إليكم تحيتى وإنى لأباركـكم . وبعد فقد بلغنا أن ميكل أنجلو المثال الذى تركنا بغير سبب ولمجرد نزوة خائف ، من العودة . أما نحن فلسنا غاضبين عليه ، لأننا نعرف نزوات الرجال ذى المواهب . ولكى نبعد كل مظاهر القلق نعتمد على إخلاصكم فى إقناعه باسمنا بأنه إذا عاد فلن يصاب بسوء ، بل سيستمتع برضانا كما استمتع به من قبل . »

ومع ذلك ظل ميكل أنجلو على موقفه ، وكان قد وجد عملا فى صب اثنى عشر تمثالا من البرنز للرسل كى توضع فى كنيسة فلورنسا الكبرى .

وجاءت رسالة أخرى من البابا إلى سودرينى رئيس مجلس الحكم ، فدعا المثال وقال له : لقد سلكت نحو البابا مسلكا لا يجرؤ عليه ملك فرنسا ؛ فلينته هذا

الأمر ؛ فإننا لا نود أن نجر إلى حرب ونعرض الدولة للخطر من أجلك ، فلتعزم أمرك على الذهاب إلى روما .

ومع ذلك ظل الفنان ممتنعا ، بل فكر فى الرحيل عن إيطاليا بأسرها والذهاب إلى سلطان تركيا الذى دعاه إلى تنسيق جسر بين القسطنطينية وحى پيرا .

فى هذه الأثناء كان البابا قد قام بحملته على مدينة بولونيا فاستولى عليها ودخل المدينة فى موكب حافل فى شهر نوفمبر سنة ١٥٠٦ ، ورأى أن يخلد هذه الذكرى بتمثال تذكارى ، وكان فى أعماق قلبه لا يرغب فى أن يصنع هذا التمثال غير ميكل أنجلو . ولذلك عاد الكردينال اليدوزى ، نائبه فى حكم المدينة ، إلى السعى لدى حكومة فلورنسا كى ترسل الفنان إلى بولونيا ، وقد وُعد بأنه لن يقابل إلا بما يحبّ . وأخيراً رضى المثّال وسافر إلى بولونيا مزوداً برسالة من رئيس مجلس الحكم . ولم يكن الفنان راضياً كل الرضا بهذا الخضوع ؛ فقد قال عن ذهابه : « لقد سافرت بعد أن وضعوا النير فى عنق » .

وقابله البابا مقابلة عاصفة وقال له : « كان من واجبك أن تبحث عنا ، ولكنك انتظرتَ حتى جئنا على مقربة منك — أى إلى بولونيا — لكى نبحث عنك » . فركع أمامه الفنان واعتذر إليه فى صوت عالٍ قائلا : إن فراره لم يكن مقصودا بل إنه اندفع فيه فى سورة الغضب ، إذ لم يحتمل حجبه عن القصر . ولم يجب البابا بل ظل مقطب الجبين مطاطئا إلى أن تدخّل أحد الكرادلة بكلمة يريد بها تهدئته فقال : « لعل قداستك لا تشتد على ما ارتكبه ميكل أنجلو من خطأ ، فهو رجل لم يتعلم قط حسن السلوك ، فهؤلاء الفنانون لا يعرفون كيف يتصرفون ولا يعرفون غير فنهم » . فما نطق بهذا الكلام حتى استشاط البابا غضبا على هذا المتدخل وصاح به : « لقد جرؤت على أن تقول لهذا الرجل أشياء لم أحلم أنا بقولها ! إنك أنت الذى لا تعرف حسن السلوك فلتذهب من أمامى أيها الجاهل التعس » . ومد يده إلى ميكل أنجلو وعفا عنه وأمره بصنع تمثاله .

هكذا عاد البابا والمثال إلى الصفاء بعد القطيعة . وكان البابا يتردد عليه فى مصنعه ليشاهد عمله كل يوم تقريباً . وتم التمثال بعد سنة وبضعة أشهر ، وكان تمثالاً عظيما يمثل البابا فى ملابسه الرسمية ، وهو أكبر من حجمه الطبيعى ثلاث مرات ، وكان تمثالا يظن أنه خالد ، ولكن حياته كانت من أقصر ما تكون

حياة هذه الآثار ؛ فلم تمض على إقامته ثلاث سنوات حتى خرجت المدينة من يد البابا، واستولى خصومه عليها ، فكسروا التمثال بين سخرية الجمهور ، وصب منه مدفع أطلق عليه چوليا تحقيراً للبابا.

عاد ميكل أنجلو بعد انتهائه من هذا العمل إلى فلورنسا، فما لبث أن دعاه البابا، لا ليتم النصب التذكارى للقبر ، بل ليصور سقف المصلى . وأراد المثال أن يمتنع ويقاوم ، ولكن إرادة البابا الحديدية تغلبت فى آخر الأمر وتم الاتفاق على العمل . ووضع الفنان الرسوم ، ولكنه مالبث أن تصور فكرة أجل وأضخم مما قدّر فى بادئ الأمر ووضع لها رسوماً ، وعقد اتفاق ثان ولم يأت شهر مايو من سنة ١٥٠٨ حتى كانت العمد والحوامل الخشبية تملأ المصلى .

أراد الفنان أن يجد أعواناً يساعدونه فى عمله ولكنه وجدهم دون ما ينتظر فصرفهم جميعاً ، ورفع عبء العمل بأكمله على كاهله . وكان مما يزيد فى متاعبه أنه لا يكاد يمضى يوم حتى يزوره البابا فى مكان عمله ، ملحفاً عليه أن يسرع . وكان البابا الشيخ يتسلق أحيانا تلك الحوامل الخطرة لكى يشاهد بنفسه ما تم عمله ، وكثيراً ما تحدث بينهما مشادات عنيفة ولكنها لا تلبث أن تزول . وقضى الفنان بقية تلك السنة وشتاء السنة التى تليها فى عمل متواصل . وفى شهر مايو تمكن من إجازة قصيرة قضاها فى فلورنسا ثم عاد إلى العمل .

كان البابا فى هذه الأثناء قد دخل فى نضال حياة أو موت من أجل تحرير إيطاليا من الفرنسيين. لذلك اضطر إلى مغادرة روما للتفرغ للقتال ، وكانت الحرب تبتلع كل ما يأتى من مال . فما جاء شهر سبتمبر حتى وقف صرف النقود إلى الفنان . فكتب للبابا مرة يطلب نقوداً ، ثم رأى أن يسافر ويذهب ليراه شخصيا فى بولونيا ، فأمر البابا بأن يزود بالمال ، فكان القائمون على الأموال يدفعون إليه بعض الدفعات ولكن فى غير انتظام . وظل هو من جهته يصور السقف بالرسوم يوماً بعد يوم ، وكان يفعل ذلك وهو مستلق على ظهره فوق الحوامل الخشبية والألوان تتساقط فوق وجهه ، حتى قيل إنه بعد الانتهاء من هذا العمل ظل زمنا ما لا يستطيع قراءة رسالة إلا إذا رفعها فوق رأسه .

لكى نقرب إلى الفكر شيئاً من التعب الذى يحتاج إليه مثل هذا العمل ،

لا نريد الآن أن نذكر جمال هذه الصور كما رآها الناس منذ خمسمائة سنة وكما يرونها حتى الآن ، ولا ما فيها من نبوغ وقوة ، بل نريد فقط أن نذكر أنه غطى ما تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربع بالرسوم ، وأنه صور من صور الأشخاص ما يربى على ثلاثمائة وأربعين صورة ، كل منها فى وضع غير وضع الآخر ، بعضها يبلغ طوله اثنى عشر قدما ، وبعضها يبلغ ثمانية عشر قدما ، وكلها دقيقة حتى فى تفاصيلها من شعر الرأس إلى أخمص القدم .

وكان البابا عندئذ فى أحرج الأوقات ، فقد انتصر عليه ملك فرنسا ، ولـكن نفسه لم تقهر . وقد عاد إلى روما فى أواخر يونيـه سنة ١٥١١ فرأى أن أكثر العمل تم . وظل ميكل أنجلو يعمل سنة أخرى بجد واهتمام . وكتب فى هذه الفترة يقول إننى أعمل عملا أشق مما عمله أى إنسان من قبل ، وأشعر بتدهور صحتى ولـكننى عازم على الصبر والعمل إلى النهاية . وفى أكتوبر من سنة ١٥١٢ كتب إلى أبيه يقول إنه أتم العمل . وفى أواخر ذلك الشهر احتفل البابا بإزالة الستار عن هذا العمل الخالد ، فوقعت أعين العظماء الذين حضروا الحفل على تلك الصور التى لا تزال تثير الإعجاب ، حتى هذا الزمن بالرغم مما أحدث بها مر السنين .

لم يكن وقتئذ أمام ميكل أنجلو مانع يحول دون استئنافه العمل فى النصب التذكارى الذى علق عليه إتمامه آماله ، وكانت الصعوبة فى هذا النصب أنه لم يتقرر بعدُ المكان الذى يقام فيه من كنيسة القديس بطرس .

ويظن أن المثال كان ينتوى حسب رسومه أن يقيم بناء يكون فيه النعش فى قالب من الرخام طوله أربعة وخمسون قدماً وعرضه ستة وثلاثون قدماً ، وتقوم حوله تماثيل ومجموعات تمثل فنون الرسم والنحت والبناء ، وهى أسيرة حداداً على البابا الفقيد ، حيث إنها لن تجد مشجعاً بعـده ، ثم تماثيل للنصر وأمامها الولايات التى استولى عليها راكعة تدل على خضوعها للـكنيسة ، ثم فى القسم الأعلى تماثيل أربعة ، يمثل اثنان منها النبى موسى والقديس بولس ، وفوق هذه التماثيل صورة للبابا وهو نائم يحمله ملـكان ، فيكون ارتفاع هذا البناء الضخم نحو ثلاثين قدماً ، وفيه أكثر من أربعين تمثالا غير صور لحوادث حياة يوليوس الثانى .

لو أن البابا عاش بضع سنوات لأتم ميكل أنجلو هـذا العمل الضخم الذى

ليس له مثيل ، ولـكن البابا كان يسرع عاجلا إلى الموت مع ماكان من مظهر الصحة التى تبدو عليه ، ومع أنه ظل يعالج مهام الأمور بنشاطه المعروف ، فكانت وفاته فى ١٩ فبراير سنة ١٥١٣ ، وكان طبيعيـًّا أن لا يتم هذا العمل الضخم ، فإن خلفاءه على كرسى البابا كانوا يهتمون للاستفادة من مواهب ميكل أنجلو فى أمورهم ، وكان الفنان يحاول عبثاً أن يتم هذا العمل وفاء للرجل الذى أحبه وقدره ، فلم يستطع ، ولـكنه مع ذلك ترك أثراً خالداً فى صورة ذلك التمثال الرائع للنبى موسى ، الذى نشاهده الآن على قبر البابا يوليوس الثانى فى كنيسة سان پيترو دى ڤينكولى بروما ، وهو الذى يمثل النبى فى جلسة عظيمة ، وهو يهم بالقيام ويكاد ينطق . وكذلك نجد أثره فى تمثالى الأسيرين العظيمين ، فى أرض فرنسا حيث وجدا مأوى فى متحف اللوڤر .

حسن محمود